شيء عن الربع الخالي

الربع الخالي اسم لمنطقة شاسعة من الرمال تقع تحت اواسط جزيرة العرب الى الجنوب الشرقي بين الخطين ١٨ و ٢٤ من العرض الشمالي والخطين ٤٦ و ٥٤ من الطول الشرقي. وهي منطقة لم يكن يعرف عنها العلماء شيئاً يذكر حتى ان الخرائط الجغرافية كانت الى عصرنا هذا تمثلها بيضاء خالصة. وكثيراً ما تاق الرواد والمغامرون من محبي الاكتشاف الى قطعها ودرس احوالها فلم يتسنَّ لهم ذلك. الى ان قيَّض القدر لرجلين من مستشرقي الانكليز باتمام شيء من تلك الرغبة، فاخترقا الربع الخالي في السنتين الاخيرتين: احدهما، وهو المستر برترام توماس، من الجنوب الى الشمال الشرقي، وذلك في شتاء عام ١٩٣٠ – ١٩٣١؛ وثانيهما، وهو المستر سنت جون فلبي، من الشمال الى الجنوب، في شتاء ١٩٣٢. فكان من نتائج الرحلتين معلومات دقيقة عن تلك المنطقة من حيث تكوينها الجيولوجي واحوالها الاجتماعية، اودعها العالمان كتابين قيِّمين. لخَّص المهمّ منها السيد فؤاد حمزة، وكيل خارجية الحكومة العربية السعودية، في كتاب يعدّه للطبع عن احوال نجد والحجاز، ونشر فصلاً منه في مجلة المقتطف (فبراير (شباط) ١٩٣٣، ص ١٧٧ – ١٨٦) قال:

نعم ان الرحالتين توماس وفيلبي لم يتمكنا من زيارة كافة اصقاع الربع الخالي، وبقيت أمام طلاب الارتياد مساحات اخرى يجب تعرف احوالها، الا انهما وفقا بصورة جازمة الى ايضاح المهم من طبيعة هذه البلاد وتكوينها وما فيها من تضاريس طبيعية واحوال عمرانية واجتماعية مما نصفه بايجاز فيما يلي:

قال توماس: يتألف الربع الخالي من اراض صحراوية يكاد يكون قسماها الشرقي والجنوبي الى حد يقرب من ثلث مساحتها كلها عبارة عن اراضي الهضبات، والقسم الباقي عبارة عن اوقيانوس من الرمال المنتشرة نحو الشمال

والغرب . وتسمى الهضاب الجنوبية نجداً ، والشرقية سيحا في قسمها الشمالي ، وجادة الحراسيس في قسمها الجنوبي ، حالة كون المناطق الرملية معروفة باسم الرمل او الرمال . . .

ويظهر مما امكن جمعه من نماذج الرمال والصخور المأخوذة من جهات مختلفة في الربع الخالي انه مكوّن من سطح كلسي الاصل تكسو الطبقات العليا منه رمال يشوبها كثير من حبيبات الكلس والجير ، وقد وجد توماس وفلبي بقايا متحجرات بحرية ومائية في جهات عديدة لا يدع وجودها مجالاً للشك في ان البحر كان في الاعصر الجيولوجية غامراً هذه المنطقة بمياهه المالحة في العصرين الجيولوجيين المعروفين باسم العصر الايوسيني والكريتاسي .

واما ارتفاع الربع الخالي عن سطح البحر فيختلف بين ١١٠٠ و ٣٠٠٠ قدم .

وهذا في ما يلي ملخص وصف المنطقة التي اخترقها المستر توماس ، من الجنوب الى الشمال

المسافة بالاميال	نوع الارض
٢٠	١ ارض مرتفعة ذات لون احمر تكثر فيها الاكثبة
٤٠	٢ ارض مرتفعة اقل تضريساً ذات رمل احمر وفيها تلال تشبه نعل الفرس
١٠٠	٣ سلاسل بيضاء متوازية تعترضها اودية ذات رمل احمر
٧٠	٤ رمال متموجة ذات لون ابيض
٥٠	٥ رمال متموجة ذات لون ابيض فيها تلال ذات لون احمر
٢٠٠	٦ هضاب وسبخات وتلال حمراء على التوالي

ولم يمكن التحقيق عن الرمال التي دعيت بالبحر الماضي ، وهي الرمال الرقيقة التي تبتلع الاثقال التي تطأها ، وانما قد تكرر ذكرها في جهات الاحقاف الى الغرب الجنوبي من الربع الخالي حيث ذكر الالماني فون فردي كثيراً عنها ، واما توماس فانه ذكر ارضاً اخرى تدعى ام الصميم تبلغ مساحتها يومين على سير الجمل في كافة الاطراف فانها مفراق لا يمكن اجتيازها ، والغالب انها من نوع السبخات التي تصادَف في سائر انحاء البلاد العربية ، فاذا كان الجوّ رطباً كان العبور منها مستحيلاً لرخاوة طينتها وقلة مقاومتها للاثقال .

واما المياه في الربع الخالي فانها قليلة بل معدومة في جهاته الغربية وكلما اتجه الى الشرق ازداد مقدار المياه وقل عمقها داخل الارض . . .

ونظرًا لانعدام الماء (ما عدا ايام الامطار) في المنطقة الواقعة الى الغرب من الطريق التي سلكها توماس وهي المنطقة التي يصح ان يطلق عليها اسم الربع الخالي فان الحياة الحيوانية والنباتية تكاد تكون معدومة فيها . وقد ذكر المستر فلبي انه بعد خروجه من واحة جبرين لم يشاهد على طول الطريق الممتد الى اواسط الربع الخالي ثم من نيفا الى سليل اي انسان كان ، مع ان المدة كانت ٥٣ يوماً على سير الابل . والذي يتراءى لنا ان قلة ارتياد البدو لهذه المنطقة انما هو ناشئ في الغالب عن قلة المياه والمراعي اكثر مما هو ناشئ عن المفاوز والمخاطر . . .

وقد ذكر لنا بعض من قابلنا من البدو الذين زاروا تلك الانحاء ان عشب الربع الخالي وماءه يجعلان دم الحيوان اسود قاتماً ، ولم يتسنَّ لنا تعليل هذه الظاهرة الفسيولوجية الّا بملوحة العشب والماء .

واما من حيث العمران فقد كان الشائع عند البدو ان في الربع الخالي آثار عمران عديدة خلفها الاقدمون من حضارات بائدة ، وكانوا يتناقلون اقوالاً متناقضة عن وجود خرابات في وبار القريبة من بئر مفينمة التي زارها المستر فلبي ووجدها بئرًا غزيرة الماء ، وكان المقول ان وبار هذه تقع على بعد مرحلتين او ثلاث من واحة جبرين وعلى طريق القوافل التجارية من ظفار ، وانها كانت تظهر وتختفي بفعل الرياح الموسمية التي تقشع الرمل عنها فتظهر آثار خرائب وقلاع وقصور عديدة حتى دعيت باسم قصور ام الحديد والحديدة . وقد حقق المستر فلبي بنفسه عن هذه الاشاعات وزار المكانين المشار اليهما وهما يقعان ما بين درجتي الطول الشرقي ٥٠ و٥١ والعرض الشمالي ٢١,٣٠ و ٢٢ فوجد ان ما كان يسميه البدو آثار عمران وخرائب قصور دامرة ان هو الا بقايا مخروط بركاني عظيم خمد منذ ازمنة متطاولة وبقيت من آثار اندفاعه متحجرات بركانية محروقة ثقيلة الوزن وبلون الحديد فكان البدو يظنونها آثار قلاع وخرائب . وقد جلب المستر فلبي معه بعض حجارة هذه المنطقة وجلب ايضاً حبوب الدخان البركاني المتبلور الذي يسميه البدو باللؤلؤ الاسود . وشاهد كاتب الاسطر هذه الحبوب فاذا بها اصغر من حجم الحمص بقليل خفيفة الوزن سوداء اللون براقة

المظهر.

وسيكون من آثار رحلتي توماس وقلبي اللتين لخصنا ما كان من نتائجهما العلمية ان البياض الذي اعتاد الناس تركه على خرائط البلاد العربية باسم «الربع الخالي» سيملأ باسماء الاماكن والآبار والهضاب والرمال المختلفة، وستنقص الجملة التي كان يشعر بها جميع من يعنى بالبلاد العربية لمعرفة حقيقة هذا القسم، وتصبح اسماء مغيمة وشنة ونيفا وابو بحر وهدبة ودكاكة وبني زيدان والعريق وغيرها من الاسماء المعتادة كالدهناء والصمان وخف وغيرها.

لاتينيون وسكسونيون

نشر مؤخرًا الاستاذ الشيخ انطون الجميل كتابًا في «شوقي»، على قسط وافر من الاعجاب بالشاعر الكبير. فتناوله الاستاذ عباس محمود العقاد، وهو من ابعد الناس عن الاعجاب بشعر شوقي، بشيء من النقد نشره في جريدة «الجهاد» المصرية. ولما لم يشأ ان يُقِرّ اعجاب الجميل بشوقي، ولا لم يشأ ان يشدّد الوطأة على فقيد مصر ولم تفرغ الجرائد بعد من نشر المراثي فيه، اخذ يتلمس للعجب مخرجًا يبرّر مدحه لشاعر الامراء. فلم يرَ الا المقابلة بين طريقة النقد اللاتيني وطريقة النقد السكسوني. فالاولى سطحية، على زعمه، تأخذ خصوصًا بالمجاملة وما تتطلبه هذه من اللياقة وادب الصالونات، كما سيأتي، والثانية متعمقة لا تهتم بالاوضاع الاجتماعية. واذًا فنقد الجميل المتلطف باللياقة اللاتينية اقرب الى المجاملة منه الى الحكم الحقيقي الواضح. وهكذا يعتقد الاستاذ العقاد بانه برّر موقف الاستاذ الجميل في ما اصدره على شوقي من احكام مدحية تخالف الحقيقة...

قد يكون الاستاذ العقاد على شيء من الحق في اعتباره هذه الاحكام. اما تعليله ذلك بسطحية المذهب اللاتيني في النقد فهو ما لا يوافقه عليه كل من عرف اصول النقد العالمي الحديث وادرك كم هو مدين لهذا المذهب اللاتيني الذي اجحف الاستاذ العقاد بتحميله تلك التبعة. وهو ما اعاب بالدكتور طه حسين الى نشر فصل قيّم في مجلة «الرسالة» الجديدة ألمّ فيه بكثير من صفات الثقافة اللاتينية والنقد الحديث، فرأينا ان نقتطف منه ما يمسّ الموضوع عن قرب. قال بالعنوان اعلاه (الرسالة: العدد ٢٠٤ شباط ١٩٣٣، ص ٢٤)

واغرب ما في هذا الفصل الذي كتبه الاستاذ العقاد تناقض لست ادري كيف تورّط فيه. وهو فيما اعلم من اشد الكتاب المعاصرين في الادب استقامة في الحكم وايثارًا للقصد وحرصًا على الاصابة في التفكير. بدأ الاستاذ فصله بأن من العسير جدًا ان يوفق الناس الى الحق حين يصدرون احكامهم على الامم

والشعوب . وعلل ذلك تعليلاً حسناً مستقيماً . ولكنهُ لم يلبث ان التمس لنفسه وسيلة للحكم العام على الامم والشعوب . بل على ما هو أعم من الامم والشعوب ، على الاجناس . فزعم اولاً ان للاتينيين مذهباً في النقد وان للسكسونيين مذهباً آخر وان هذين المذهبين يختلفان فيما بينهما اشد الاختلاف . وزعم بعد ذلك ان اخصّ ما يمتاز به المذهب اللاتيني « الاناقة » . واخص ما يمتاز به المذهب السكسوني « البساطة » او « الفطرة » . وفسر هذا بانك اذا قرأت الناقد الفرنسي رأيت رجلاً انيقاً لبقاً يقدم في احد الصالونات كاتبه الذي ينقده على الاوضاع الاجتماعية المألوفة مجاملاً متكلفاً وقد يومئ ايماء خفيفاً الى بعض العيوب ولكن على سبيل النكتة او على سبيل الحيلة في التماس الدفاع عن هذا الكاتب الذي ينقده او الرجل الذي يقدمه الى الصالون . اما الناقد السكسوني فهو لا يحفل بالاوضاع الاجتماعية . وانما يهجم بك فوراً على الحياة الفردية على الحقيقة الانسانية ، على الرجل من حيث هو رجل لا من حيث هو فرد من جماعة . ومعنى هذا ان نقد اللاتينيين سطحي مخالف لاصول العلم وان نقد السكسونيين هو النقد العلمي الصحيح الذي تجد فيه الفائدة وتجد فيه الغناء . وانا احبّ ان يعذرني الاستاذ العقاد اذا قلت له في صراحة اني كنت انتظر منه كل شيء الا التورّط في هذا الخطأ الصارخ والظلم المبين . فليس من الحق بوجه من الوجوه ان الاختلاف بين النقاد اللاتينيين والسكسونيين عظيم الى هذا الحد الذي يتصوره الاستاذ . فليس هناك نقد لاتيني ونقد سكسوني ، وانما هناك نقد فحسب . نقد يعتمد على هذا الذوق الفني العالي الذي احدثته الثقافة اليونانية اللاتينية وورثته عنهما الامم الحديثة على اختلاف اجناسها وبيئاتها . فكل النقاد من الفرنسيين والايطاليين والالمانيين والانكليز قد قرأوا آيات البيان اليوناني واللاتيني وذاقوا آيات الفن اليوناني والروماني وكوّنوا لانفسهم او كونت لهم هذه القراءة ذوقاً عاماً مشتركاً بينهم جميعاً يختلف في ظاهره ولكنه لا يختلف في جوهره . لان هذا الجوهر واحد مستمد من هوميروس وبندار وسوفوكل واوستوفان وافلاطون وسيسيرون وتلسيت ومن اليهم . نعم وهذا النقد الحديث يعتمد على اصول اخرى غير الذوق ، اصول

تشبه العلم او تحاول ان تكون علماً . وضعها ارسطاليس ومن جاء بعده من نقاد اليونان والرومان وسموها علم البيان . يعتمد النقد الحديث عند الامم الاوربية مهما تختلف اجناسها على هذين الاصلين : الذوق الذي تكونه الثقافة اليونانية اللاتينية، والعلم الذي وضعه ارسطاليس واصحابه . وللاستاذ ان يدرس على مهل وفي أناة وروية من شاء من النقاد المحدثين في اي امة من الامم الاوربية فيرى ان هؤلاء النقاد جميعاً يتفقون في ان نقدهم يقوم على هذين الاصلين اللذين أشرت اليهما . فاذا اختلفوا بعد ذلك فانما يختلفون في الاشكال والصور باختلاف امزجتهم الخاصة وباختلاف البيئات التي يعيشون فيها ويكتبون لها .

عسير جداً ان يقال اذاً ان هناك نقداً لاتينياً ونقداً سكسونياً وان هذين النقدين يختلفان في الجوهر والطبيعة ، ثم اعتذر الى الاستاذ بعد هذا من أني لا استطيع ولا اظن ان احداً يستطيع ان يقره على رأيه في النقد اللاتيني ، بل انا لا اقضي العجب من تورط الاستاذ في اعلان هذا الرأي الغريب . فليس من الحق ان النقد اللاتيني سطحي ، وليس من الحق ان هذا النقد يعتمد على الاوضاع الاجتماعية ويهمل الانسان من حيث هو انسان . هذا كلام لا يمكن ان يقبل مع ان من الاشياء المقررة التي يتلقاها الشبان في المدارس ان قوام الادب الفرنسي الكلاسيك انما هو بالضبط : الماء هذه الفروق والاوضاع الاجتماعية التي تمتاز بها الامم والشعوب فيما بينها بل التي تمتاز بها البيئات المختلفة في امة بعينها ، والاتجاه الى الانسان من حيث هو انسان ، الى هذا القدر المشترك بين الناس جميعاً من العقل والشعور . على هذه القاعدة يقوم الادب الفرنسي الكلاسيك كما يقوم عليها الادب اليوناني القديم . والادب كله بما فيه من شعر ونثر ونقد . فكيف يقال في ادب يقوم على هذا الاصل انه سطحي على الظواهر والاوضاع الاجتماعية .